❁ الحوار الإسلامي الغربي بين الممكن والمستحيل

نذير بوصبع

كلّيّة العلوم الإسلاميّة -الخروبة-

***نافذة على الموضوع**

تحديد المفردات، وضبط الحدود التي تشكل القضية المطروحة، ورصد الثّابت فيها والمتغيّر، كلّ ذلك ممّا يتطلّبه منهج الدّراسة وموضوعها. لذا كان لزاما تحريك مفردة (الغرب) ومدلولها المعرفّي-الذي استقرّ في مألوفنا اللغويّ استقرارا "أعجما" كأنّه مسلّمة لا تقبل النّقاش، مع أنّه كلمة شديدة العموم والإبهام.لذا تطرّقت إلى مضمونه، وتتبّعت الأدوار التي مرّ بها وهو يبحث عن صورته في مرايا المفاهيم- انطلاقا من عدّة أسئلة-تطرحها الضرورات: ما المقصود بالغرب؟

أهو نطاق جغرافيّ، أم كيان عقائدي دينيّ؟

أم هو قوّة اقتصادّية متّجهة نحو التّعاظم المّطرد وابتلاع الآخر؟

أم هو-أخيرا- وجود ذو أبعاد إنسانيّة، نلتقي معه، ونتقاطع في كلّيات الحياة السّويّة؟

-لا شكّ أنّ رصد طبيعة هذا "الغرب" يعدّ مدخلا طبيعيّا للتّحقق من العلاقة بين الإسلام-والغرب ومعرفة ما إذا كانت صداما حقيقيّا أم مفترضا، أم هي حوار وتعايش؟ وعلى ضوء الإجابات الممكنة للتّساؤلات السّابقة تثار أسئلة جديدة: كيف نؤسّس لعلاقتنا مع الغرب: أَعَلَى مثلنا وقيمنا-الخالدة-وما يأمر به الإسلام من أساليب رفيعة في التّعامل مع الآخر، ولو كان عدوّا، أم نؤسّس لها على الواقع وإيحاءاته، وإيقاعاته السّريعة، الملتوية، وهو واقع يهندس له الغرب حسب إرادته ومصالحه، ويفرضه على الآخرين؟

-ثمّ من هي الجهة المقصودة بالحوار: الأنظمة القائمة-أو بالأحرى النّظام- القائم في الغرب أم النّخب الفكريّة أفرادا كانت أو منّظمات أهليّة؟

-ومن لوازم القضيّة التي بين أيدينا-البحث عن صورة العالم الإسلامي بمكوّناته المختلفة في أذهان الغرب، إذ الحكم فرع عن التصوّر، والمصاديق تابعة للمفاهيم.

الغرب في بحثه عن الذات:

-المنطلق-الوسيلة-الغاية:

بدأ مفهوم الغرب دينيّا-وتطوّر إلى مفهوم فلسفيّ جامع، ثمّ صار حركة استعماريّة سافرة، واستقرّ-أخيرا-على هيمنة تعتمد على ذكاء حادّ، وبعد نظر، وقراءة شاملة للمكان، والزّمان، والإنسان.

فكان عسيرا معرفة الأساس الذي يصلح التعامل عليه مع الغرب وهو مؤسّسة فكريّة لا تستقرّ-كأنها تجري نحو غاية بعيدة.

منذ القرن الرابع قبل الميلاد والعقل الغربي يبحث عن ذاته، ويرسم لنفسه الطّريق، وكان في كل عصر يحدث سلسلة من الوقفات، والمراجعات، ليصحّح حينا، وينقض حينا آخر: نقض صلة المؤسّسة الدينيّة الكنسيّة بالحياة، وقطع استمرار الفكر الدّيني داخل الفكر الغربي من خلال الثّورة على الفكر المدرسي (الاسكولائي)[1].

الذي أراد القدّيس توما الاكويني-أن يوفّق من خلاله بين العقل وتعاليم الكنيسة.

وجاءت ثورة "ديكارت"(1596-1650) انطلاقا من العقل-وصولا إلى الوجود، وحلّ مشكلة المعرفة بافتراض وجود أفكار فطريّة خلقت مع الإنسان.

-ولم يهدأ العقل (الأوربي)، بل واصل سيره باحثا عن الذّات، وباحثا عن موقع ارتكاز نهائي يؤمّن لها الوجود المطلق، فظهرت أفكار وفلسفات، تقتبس من جهود السّابقين،

وتنتقد وتوجّه، متّخذة من العقل مصدرا للمعرفة، وقد مثّلها "ليبنتز" (1646-1716)

"وسبينوزا"(1632-1677)"وفولف" (1679-1754).

وأخذ العقل الغربي يخرج من دوائر العقل التجريدي، وينزل إلى الواقع، والتجريب المنصبّ على الطّبيعة، وحمل الفلاسفة الإنجليز هذا العبء، وساروا به أشواطا بعيدة، بداية من "فرنسيس بيكون"(1561-1626)، ثمّ "جون لوك"(1632-1704) و"جورج باركلي" (1685-1753)، وصولا إلى ديفيد هيوم (1711-1776).

وما كان العقل الأوربي ليعرف الهدوء، بل كان ثائرا جامحا في بحثه عن الذّات، يتقلّب بين العقلانيّة، والمادّية، والشكّ في كلّ شيء، والرّفض المفضي إلى الطّريق المسدود والأزمة المطبقة.

لكن في كلّ مرّة يبعث لهذا الغرب من يجدّد له أمر عقله على غرار ما فعل الفيلسوف الألماني "إيمانويل كنط" (1724-1804)"الذي أخذ على عاتقه إنقاذ العقل والأخلاق والدّين"[2] مرجعا قدرة العقل على التركيب والتّنظيم وخلق العلاقات إلى الذّات (التّرانستنداليّة)[3] ، ولعلّ ذلك التفات إلى المصدر الإلهي الذي يسبق وجوده وجود العقل البشري.

-في غمرة البحث داخل دوائر محدّد، تفرضها المناهج، وتضبطها الحتميّة التجريبيّة- يتمرّد العقل الأوربي، الذي أحسّ بالضيق وكثرة القيود، ويعبّر عن تمرّده داخل التّيار الرّومنطيقي-وهو حركة شاملة-بدأت في جوانب الأدب والفنّ، يطبعها الإندفاع المتحمّس والحياة والتطوّر، لكنّ الفلسفة هي الأخرى قد أخذت منه بنصيب-إذ ثارت الفلسفة الرّومنتيكيّة على الاتجاه الآخذ بالعقل وحده، منادية إلى الإيمان بوجود

قـوى أخـرى للإنسـان غيـر العقـل، أهمهـا العاطفـة، والحـدس المرتبطـان بالحيـاة وباللانهائي[4].

ومهما عدّد الدارس تيّارات الفلسفة الغربية (الأوربية) لا يبلغ تخومها النهائية– لكثرتها وتنوّعها–ولئن كان التعبير سائغا هنا لقلنا إنّ على الباحث أن ينتقل من التأريخ للفلسفة إلى فلسفة الفلسفة، ويبحث عن دوافع تلك الحركة الدّؤوب، أكانت لعبة عقلية، وتسلية، أم تعبيرا عن قلق مهيمن، وحاجة جوهرية إلى معاينة الوجود، والكون، والوصول إلى شاطئ الاطمئنان.

كان الغرب يلاحق ذاته، من قرن إلى قرن، ولا شك أنّ تضحيات أبنائه كانت جسيمة، لا تقل عن استشهاد أصحاب الحقّ عن حقّهم، ومنجزات الغرب –منذ بداية التفكير، ومنذ عصر النّهضة[5]كثيرة، يصعب –مجرّد تصنيفها، واستعراضها، وتعداد أعلامها–والذي يعنينا هنا هو الإلماع إلى الحركة العامة للعقل الغربي المستنفر على الدّوام، والوقوف على الجهد الذّاتي، المنطلق من الإنسان، المنعكس عليه كذلك، وهي خاصة اختلاف مع العقل الاسلامي المنطلق من الله (الوحي) والمتّجه إليه أيضا– مما يجعل الحوار المنشود حوارا بين طرفين مختلفين مصدرا وغاية.

الغرب وإساءة فهم الآخر:

لم تنقطع طموحات أوربا "العاقلة" في الوصول إلى صورة "الذات–الأنا"، الذي يحاصره "الغير" ويتهدّده، وهذا الغير ليس له مشخّصات إلا في الكيان الإسلامي الحضاري.

في القرن العشرين، كانت أحداث، وتحوّلات، وإبداعات لم تشهدها قرون كثيرة سابقة: فقد عرف هذا القرن إضافة إلى المعارف–حربين أوربيتين–أعقبتا ويلات ودمارا.. يصعب نسيانهما.

ارتفعت ستارة هذا القرن عن أنشطة عقلية، نجم عنها مواقف وفلسفات يصنّفها العارفون إلى فلسفة مادّية، وفلسفات مثالية وفلسفات الحياة، وفلسفات الماهية...[6].

والناظر إلى خطوط الفكر الغربي في أوربا يلاحظ مدى تعدّد مصادر هذا الفكر، وتنوّعها لكنّها وهبت أمة واحدة، بأهداف واحدة ولم تنتج فرقا تزيدعلى الثلاث والسّبعين، كما هو الحال في أمّة الإسلام إذ برغم واحدية مصدرها تفرّقت، وأصبح تفرّقها هو الأصل في وجودها. وتلك مفارقة... فهم أمة تستجمع قواها وطاقتها، ونحن أمّة تتفكّك، وتنحلّ، لم يكن الغرب شيئا[7]، فصار ماردا، وكان المسلمون أمّة واحدة فصاروا هباء، وهشيما.

وملاحظة أخرى تستثار عند قراءة ملامح هذا المارد الغربي وهي أنه تحرّك منذ بداياته الأولى خارج الضمير الدّيني، وتعلّق في أولى إطلالاته بخيوط العقل، ولئن رجع إلى القلب، فلم يتجاوز مستوى الفنون والآداب، كما ظهر ذلك في "الوجودية" التي بسطت مضامينها في الرّواية والمسرحية.

أما التوجّه القصدي إلى أهداف أخلاقية فلم يكن واردا في مخطّط العقل الغربي–ذلك أن هذا العقل ضحى بكل شيء كان موجودا–بدءا من الثقل الدّيني وتأثيراته–إذن لم يكن للضمير المتدّين الحاكم على العقل تأثير–كما هو الحال في المذهبية الإسلامية

التي تجعل صوت الضّمير أعلى من صوت العقل، فإقامة العدل، وإحقاق الحقّ، ونصرة المظلوم، مطالب، وغايات خالدة، وقواعد مقرّرة في الدستور الإسلامي.

ولنا أن نتساءل عن مصير هذا "الرأس العملاق" كيف يدار وأيّة قوّة عليا– سياسيّة خصوصا–تسيطر عليه وتوجهه؟

إن الغرب السياسي استثمر الطاقات الخلاقة بدءا من القرن الخامس عشر الميلادي، وخرج من موقعه في اتّجاه الهيمنة على الضفّة المقابلة حاملا في صدره جذوة الحقد الصّليبي.

وإذا حدّدت الزمن بالقرن الخامس عشر فلأنّه يحمل دلالات تاريخيّة سهلة القراءة، والاستنتاج: ففي هذا القرن اندحر الصليبيّون في الشّرق ..، وتهاوت أطماع التّوسّع الصليبي الأعمى لكنّ حقدهم (المقدّس) على الإسلام تعاظم. وفيه فتح السّلطان محمّد الفاتح القسطنطينيّة تحت لواء الإسلام، ونشرا لرسالته، ومقابل هذين الحدثين تراجع المسلمون، وتركوا–مرغمين–دولتهم في الأندلس، بتوقيع معاهدة التّسليم بين حاكم غرناطة، وملكي قشتالة في **21** محرّم سنة **897**هـ(**25** نوفمبر **1491**م)[8].

في هذا القرن طغت نزعة الانتقام لدى السياسيين، مدفوعين بمواعظ القسس والرهبان، التي تحثّهم وتحملهم على ملاحقة المسلمين في حرب مقدّسة.

وحدّد الغرب علاقته مع العالم الإسلامي، وعرف طبيعتها فرجع غازيا تحمله الرغبة في الانتقام أوّلا، والاستيلاء على الثروات ثانيا، لأنّ الثّورة الصّناعيّة دفعت إلى البحث عن رؤوس الأموال.

الإسلام والغرب: أو قوّة الرّحمة وجبروت القوّة:

في الوقت الذي كان الإسلام يؤسّس على شريعة الضّمير المتديّن والقلب الرّحيم، والعدل المطلق، حتّى مع العدوّ: ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا، إعدلوا هو أقرب للتّقوى﴾[9]، وكان يرجّح الضّمير، ويجعله معيارا فاصلا للتفريق بين الحقّ والباطل، كان الغرب –في المقابل–يرجّح العقل، ويؤلّهه: " إنّ العقل قادر على حلّ جميع المشكلات ولا توجد مشكلة حقيقيّة إلا تلك التي يستطيع العلم أن يحلّها، وهذه هي السّمة المميّزة للمذهب العقلي الكبير مذهب (سبينوازا) و(هيجل) وهو يرى أن العقل يحلّ مشكلة الغايات–أو المذهب العقلي الصّغير–مذهب وضعيّة (أوغست كونت) الذي يرى أن العقل يحلّ مشكلة الوسائل، وإن كل مشكلة أخرى هي مشكلة لا هوتيه أو ميتافيزيقيّة –وإذن هي مشكلة زائفة ! وهذه المذهبية قد أنجبت العلميّة والتكنوقراطيّة، وكلتاهما تؤلّف ديانة وسائل، ديانة حقيقيّة، وإنّ العلمية والتكنوقراطية تطرحان دوما سؤال: كيف؟

ولا تطرحان البتّة سؤال: لماذا؟

في مثل هذا التصوّر الوحيد ينحلّ الفكر إلى الذكاء وحده، ولا يجد فيه الحبّ، ولا الإيمان، ولا الشّعر مجالا"[10].

إن حبل التواصل بين الإسلام والغرب منقطع –ضرورة–لتنافي الطّبيعتين: طبيعة تقدّم هدي الضمير وشريعته، وطبيعة تقدّس ارتباط العلل بمعلولاتها، وتجعل منجزات العقل انجيلها المحكم، ومن جهة ثانية وهي نتيجة لما سبق–يقوم تصوّر الغرب للوجود على التسلّط والاستعلاء، بينما ينهض التصوّر الإسلامي للوجود على التسامح وخفض الجانب انطلاقا من الآية الكونية الخالدة: ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[11].

قد تتغير أنماطا السلوك الغربي (الأوربي)، وأساليب تعالمه مع الآخر–العالم الإسلامي–لكن روح التعامل وأسسه ثابتة، وإن غلّفت بشعارات إنسانية أخّاذة مثل التعاون والتكامل، الشّراكة والصداقة...، وأسس تعامله وحواره ثابتة لا تدخل في طاولة النقاش، يمكن تلخيصها في الآتي:

1–الأساس الاقتصادي:

إن الدّول الأخرى –العالم الإسلامي–هي مكان لاستثمار رؤوس الأموال بأفضل الأرباح، وهذه الفكرة أعلن عنها (ستيوارت ميل) في قوله:" بالنسبة للدّول القديمة والغنية، فإن الاستعمار هو أحد أفضل المشروعات التي يمكن أن تقوم بها، ففي الأزمة التي تمرّ بها الصناعة الأوربيّة، تكوين مستعمرة هو بمثابة تأسيس سوق"[12].

2–الأساس الإنساني:

مفاده أن الغرب جنس متفوّق–والجنس المتفوّق له حقّ لدى الأجناس الأخرى، الأدنى، وهو ما يعتقده الأنتروبولوجي الفرنسي (ليفي شتراوس) الذي يعتقد أن التقدّم ليس مرحلة من مراحل تطوّر العقل البشري، بل نمط خاص بالمجتمعات الغربية، التي تعيش من خلاله وجودها وتعقل نفسها، ومن هنا فالتخلّف نمط خاص بالمجتمعات الأخرى، ولاحظّ لها في الارتقاء.

هكذا ينظر الغرب الأوربي إلى الآخر.. ولهذه النّظرة تبعات ونتائج.

3–الأساس السّياسي:

إنّ سياسة التوسّع الاستعماري هي المحرّك العام الذي يفرض نفسه على القوى الأوربيّة، وهذه السّياسة لها مبّررات خفيّة غالبا[13]، وما يعلن لا يكشف عن الذرائع

الحقيقية، بل يكون مناقضا للواقع، ومن المؤسف حقّا أنّنا نصدّق ما يعلنون، ونغفل عمّا يخفون–وهو المعبّر عن الحقيقة الكاملة.

وبشكل عام، فإنّه خلافا للموقف الإسلامي الهادئ، واللامبالي أحيانا في علاقته مع الغرب، كان موقف الغرب المسيحيّ من الإسلام انفعاليا وغير متسامح روحيّا، لأنّ الإسلام كان في تصوّر الغرب "تحدّيا" تطلّب ردّا ومقاومة، واهتماما، ولأجل إدارة الصّراع بنجاح مع الإسلام–الخصم–كان لا بدّ من دراسته.. وعلى هذه القاعدة نشأ الاستشراق، وهو استشراف، وتنقيب في البنية الفكرية والرّوحية للعالم الإسلامي،لتتم السّيطرة عليه استعماريّا.

ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن الغرب المسيحي تطوّر وتشكّل وعيه بفعل التوجّس من الإسلام، حتّى وحدة أوربّا الثقافية والجغرافية تكوّنت في أذهان الأوربيين في مسيرة "الاستعادة" و"التّحرر" و"الحروب الصليبية"، حيث إن تلك التصوّرات الجغرافية السّياسية (الجيوسياسية) والثقافية ظهرت عندئذ ووضعت نفسها كنقيض مضاد للعالم الإسلامي[14].

إنّ تتبّع أطوار التكوّن الغربي يوقفنا على طبيعة الطرف الذي يحاورنا–وهو طرف مبدع، نشط لكن قلق، فاقد للطمأنينة صداميّ، ضعيف الإيمان بفكرة توازي الثقافات، وتآلف الحضارات، إضافة إلى تعدّد الأزمنة واللحظات في تاريخ ميلاده، ومن ثمّ تعدّد الطبائع –وهو الأمر الذي يربك عملية الحوار المنشود، ويدفع إلى البحث عن بديل محاور يمثّل الغرب النموذجي.وستزداد فكرة الحوار بعدا عن التحقّق عند الوقوف على الغرب الجديد –أمريكا.....

* تحديد الطرف المحاور:

ضيّع العالم الإسلامي وقتا كبيرا في بناء حوارات داخليّة، بين الرعيّة والسّلطة أولا، وبين المذاهب الدينيّة، والتّيارات التي تتقاسمها فئات الشّعب، حتى إن لفظة حوار اكتسبت مدلولا محلّيا لا يقبل التّصدير، وأصبحت مع الزّمن لا تنصرف إلا إلى المعنى المحلي الدّاخلي للحوار، وفي أفضل الأحوال يمتد معنى الحوار إلى ذلك التعايش بين المسلمين ومواطنيهم المسيحيّين. وواضح أن حوارا كهذا غير مقصود في موضوع البحث لأنّه مسألة محلية يحسمها الانتماء إلى الوطن الواحد والتقيّد بدستورة وقوانينه.

وتبع هذا الخلل تأخّر اتّجاه المسلمين إلى بناء حوار مع الغرب، وشق قنواته، وضبطه وتقنينه، انطلاقا من مبادئ الهوية والتّمايز، والتفرّد في الشخصيّة..، وكان من نتائج هذا "التأخر" في الفعل أن صار سلوكنا قائما على ردود الأفعال، التي لا ترقى إلى مستوى الفعل الغربي، ولا إلى مستوى الفعل الكامن في الذاتية الإسلامية ومقدماتها العظمى، بعظمة مصدرها الأزلي –الوحي...

فمنذ نشأة الدول الإسلامية المعاصرة واستقلالها كان الحوار محدودا لا يتجاوز مفهوم الحوار مع الذّات، ولا تكاد تخلو دولة إسلامية من ملّفات الحوار الداخلية، وكل ذلك صرف للوقت والجهد والمال بلا طائل.

*** أمريكا الغرب الجديد:من الانفصال إلى التّمرد والطغيان.**

بدأت الولايات المتحدة سياسيّا بإعلانها وثيقة الاستقلال عام **1776**م وضمنت وثيقة الاستغلال مبادئها التي قرّرت بها حقوق الإنسان الطبيعية التي لا فضل فيها لأحد على أحد، واعتمدت على الفكر الأوربي بصفة عامة، وعلى فكر "جون لوك" بصفة خاصّة، فكانت بذلك مستقلة بجسدها، غير مستقلة بروحها، ولبث الأمر كذلك حتّى جاء (رالف والدو أمرسن **1803–1882**) فكان أوّل فيلسوف "أمريكي الرّوح"، ألقى خطابا عام

1837 أمام الشباب المتخرج في جامعة هارفارد بعنوان" العالم الأمريكي" فعدّ هذا الخطاب فيما بعد، إعلانا للإستقلال العقلي في الولايات المتحدة، جاء مكمّلا للاستقلال السياسي الذي سبقه بستّين عاما، في هذا الخطاب التاريخي الخالد في تاريخ الثقافة الأمريكيّة، يقول "أمرسن": "إن يوم اعتمادنا على غيرنا، وتتلمذنا الطّويل على علم بلاد أخرى، يقترب من نهايته، إن الملايين من حولنا، التي تندفع نحو الحياة، لا تستطيع أن تعيش على البقايا الذابلة من المحصول الأجنبي"[15].

والملاحظ في مسار التكوين للعقلية الأمريكية–أن تخلّق العقل المهيمن تمّ من خلال ممارسات رجال الحكم وسياستهم[16]، وأن الفلاسفة بالمعنى الأكاديمي الاحترافي–كانوا يختفون وراء أولئك السّاسة، وفلسفتهم كانت احتواء لمواقف السّاسة، وإعادة لصياغتها، وإن تطوّرت الوضعية (السياسية الفلسفيّة) إلى تبادل التأثير.

استصحبت أمريكا قانون الطبيعة الذي طبّق في حقل الاقتصاد، وأطلقوا عليه منهاج "كلب يأكل كلبا"ومعناه أنه إذا كان قانون الطبيعة صراعا من أجل الحياة، وفيه الضعيف ينقرض والقوي يعيش ويقوى، لهذا فإن أيّ جدل حول الأخلاق والأدب في المجال الاقتصادي والتجاري لا معنى له. فهدف المنافسة حسب المذهب الطبيعي التطوّري هو النّجاح والبقاء..، وبأية طريقة كانت أخلاقية وغير أخلاقية.

ولما جاء عصر الإنتاج الكبير، روّج تلك الأفكار كبار أهل الصناعات إذ نادى هؤلاء بالمنافسة الحرّة من أي قيد ومن أيّ شرط ومن أيّ تدخّل حكومي خاصّة لحماية المستغل أو المستهلك، وكلّه تحت راية" حرية التجارة" وتعاظم مذهب الفرديّة **Individualism** في أمريكا، وأصبح دين أرباب الصناعات ورؤوس الأموال.

وأقول هنا إن الرؤساء المتعاقبين على الحكم في أمريكا هم الصانعون الفعليون للّروح الأمريكية، ودور الفلاسفة لم يكن بناء هذه الرّوح،بل كان صياغة ذلك الأسلوب العملي، وترويجه أكاديميّا.

لقد حدّد الباحث(سول بادوفر) في كتابه (روح أمريكا)العوامل الحقيقية في تكوين الروح الأمريكية، وأرجعها إلى المنطق العملي المشتق من "يوميات" رؤساء أمريكا المتعاقدين، وما كان له من تأثير من توجيه مسار الحياة الأمريكيّة بكاملها.

هؤلاء كانوا على درجة عالية من الفكر العملي، فكر تحويل المعاني إلى أشياء ملموسة، ولم يكونوا تجريديّين، أو نظريّين مدرسّيين.

-من جورج واشنطن (1735-1826) الأستقراطي، إلى توماس جيفرسون (1743-1826) الديمقراطي، وصولا إلى ويلسون (1856-1926)[17].

فوق هذا الخط الزمني استقلت أمريكا، ماردة، قوية، بلا ضمير، شريعتها السيطرة والاستعلاء، وأسلوبها انتهاز الفرص، واستثمار الكوارث، وإلغاء الآخرين.

لقد لاحظ المفكر الكبير (روجي جارودي) على حقّ" أن أمريكا جمعت ثرواتها من كل مآسي العالم" ويضيف" خسائر أوربا في 1914-1918 جعلت الذهب يتدفق على الجانب الآخر من الأطلنطي، ومن خلال البيع والقروض أصبحت أمريكا منذ ذلك الحين قوة على أعلى مستوى، ولم يعد أمامها إلاّ أن تسرع إلى الإنقاذ من أجل الانتصار النّهائي في عملية الإنزال عام 1917 بعد فيردان، كما أسرعت إلى إنقاذ الانتصار مرة أخرى في عام 1944 بعد ستالينجراد-كانت على يقين أنها ستكون في جانب معسكر المنتصرين، بأقل التكاليف الممكنة، وأنها ستهيمن على أوربا التي نزفت دماؤها من الأطلنطي إلى موسكو وغطّت أراضيها الجثث والأطلال بعد أن فقدت خمسين مليون إنسان"[18].

واستقرت الرّوح الأمريكية، استقرارا فلسفيّا، وأصبحت الذّرائعية هي الدّليل الرسمي للسّياسة الأمريكية ممثّلة في البنتاغون والرئاسة، وكلّ تحرّك نحو الخارج إنّما يتمّ بعد استفتاء البراغماتية وملخّص هذه الفلسفة المهيمنة على العقل السّياسي الأمريكي هو الإلتفات إلى "ما سيكون" بدل الالتفات إلى الماضي السّابق على نشأة الفكرة المراد تحقيقها، فالفكرة صواب إن كانت نتائجها ممّا يسعف ظروف حياتنا العمليّة، وتفيدنا في حل مشكلاتنا،و هي خطأ إذا لم يكن لها مثل هذا الأثر[19].

ولقد نظر إلى صاحب هذه الصّياغة الفلسفيّة على أنّه نموذج الفيلسوف الأمريكي، وعنوان الفلسفة الأمريكيّة، فقد أقام مفهوما جديدا للمعنى وهو أنه لا معنى للعبارة إلا نتائجها العملية في خبراتنا البشريّة، وإذا لم يكن ثمّة في خبراتنا من نتائج تترتّب على جملة معيّنة، لم يكن لتلك الجملة معنى، بل كانت لغوا فارغا لا يدل على شيء.

وما قيل عن المعنى –في هذه الفلسفة–يقال عن"الحق"، فكلّ ما يؤدّي إلى النتائج المرجوّة "حق"، وكل ما لا يؤدّي إلى مثل هذه النتائج "باطل" الأمر في ذلك شأنه شأن الفروض العلميّة[20].

إن الالتفات إلى دعائم البناء العقلي الأمريكي لا تقتصر أهمّيته على البحث النظري، بل هو ضروري في عمليّة الحوار، لأن لكلّ محاور مواقف ترجع إلى مبادئ–فالطرف الإسلامي لا ينطلق متحركا فاعلا إلا باستفتاء مبادئ دينه، وأحكامه الآمرة الملزمة، وكذا الحال مع الغرب، فإنه لا يتصوّر تجرّده من مبادئه وأهدافه أثناء هذا الحوار"الموهوم".

لا يستقيم الحديث عن أي حوار أو علاقة تقارب بين الإسلام والغرب إلا على ضوء المبادئ والقواعد والتوجّهات التي يملكها هذا الطّرف وذاك.

وإذا كان لزاما علينا نحن المسلمين أن نقيم حوارات، فاللازم أيضا أن نلتفت إلى ما ينطق به الآخر، وما يفعله، ونؤمن به إيمانا قوّيا: لاقتناعنا بأن الغرب الأمريكي(الذي احتوى الغرب الأوربي) إنّما ينطلق من الممارسة، وما تفضي إليه من نتائج.

* المحاور حدّد مبادئه وأهدافه:

الملاحظ على هذا الحوار أنه ينجز بصورة لا تؤدّي إلاّ إلى طريق مسدود، وتصادم لأنّه حوار بين مثل ثابتة يحكمها الإيمان والعدل، وبين سلوك متحرّك حول المصلحة، وخارج الضمير والأخلاق.الغرب يحدّد علاقته بالآخر كما يريد هو لا كما تقتضيه طبيعة الأطراف المتحاورة، وما يستلزمه تعدّد الأصوات، والمصالح، وما يقتضيه العدل والحق والإنصاف.

-الغرب (الأمريكي) لا يعبأ بالمثل في إقناعه، لذلك يعتمد على المغالطة والكذب والتّضليل، ويلوّح بسطوة القوّة-الحجّة البالغة التي يملكها! من ذلك ما حصل في حرب الخليج الثانية عندما أعلنت أمريكا أوّلا أن هدفها من دخول الحرب هو الدفاع عن القانون الدّولي، ثمّ أعلنت هدفها الحقيقي: تدمير العراق الدّولة الوحيدة في المنطقة التي قد يكون لها مستقبل في عالم الأقوياء(....)، وما تزال اللعبة الأمريكيّة تكمل فصولها في هذه الأيّام بحملتها الكبرى في الشرق الأوسط-باسم تدمير أسلحة الدمار الشّامل! !

-انطلق القطار التاريخي الأمريكي، وقرّر، وحدّد وجهته، ولا أظن أنه سيعبأ بمثلنا، لأنّنا غير مؤهّلين حضاريّا لمجاراته ومعادلته أو مكافأته.

*الصهيونية حارس الشر...والحوار نكتة!

تحت عنوان: "الولايات المتحدة مستعمرة اسرائيلية "كتب المفكر الفرنسي روجي جارودي مثبتا الصّلة التاريخيّة العضوية بين الفكرة الصهيونية التّوراتية ونزعتها الصّدامية وبين

الولايات المتحدة الأمريكية قائلا: " العلاقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ليست في نفس طبيعة التحالفات العادية بين الدول.

فبين اسرائيل والولايات المتحدة هناك في الوقت نفسه وحده جذور ووحدة أهداف، واستمرارية كهنوتية وسياسية في رؤية تعاملها مع العالم، سواء كان هذا التعامل كشعب مختار مثل الاسرائيليين أو كشعب ذي مصير واضح مثل الولايات المتحدة، هذه الايديولوجية المشتركة ولدت قبل تكوين الدّولة الأمريكيّة المستقلّة عندما كانت أمريكا الشمالية مستعمرة انجليزية"[21].

لم يعد من الموضوعية في شيء تجاهل اسرائيل بأبعادها الصهيونية وأثرها الحاسم في تحديد معنى الغرب، بل لا أجانب الحقيقة إذا قلت إن الصّيغة الحوارية مع الغرب ستظلّ معلّقة على إجازة الولي الصهيوني وموافقته.

سارت الحقيقة الصهيونية في خط الفكر الغربي، وسرت في كيانه، وضربت بجذورها في أعماقه، منذ ظهور (البيوريتانيين)[22]. الذين عدّوا أنفسهم شعب الله المختار، وحملوا ايديولوجيتهم وأسطورتهم إلى أمريكا.

في عام 1918 كتب الرّئيس "ويلسون"، الذي تربّى في تلك المفاهيم والتقاليد إلى الحاخام"ستيفن وايز" (خطاب 31 اغسطس 1918) ليؤكد له موافقته على إعلان بلفور مؤسّسا على الأساطير الصهيونية وعندما تحدّث "جيمي كارتر" في الكنيست الإسرائيلي في مارس 1979 في أوّل سابقة من نوعها منذ إعلان قيام الدّولة الاسرائيلية أعلن قائلا: إسرائيل والولايات المتحدة تكوّنتا بالرّواد الأوائل، بلادي أيضا وطن من المهاجرين واللاجئين، الذين تكوّنوا من شعوب جاءوا من العديد من الدّول..، إنّنا نتقاسم إرث الانجيل[23].

-لا يستطيع المرء أن يعرف مدى سلطان الفكرة الصهيونية وسطوتها إلا من خلال ضخامة الوسائل السياسية والإعلانية والمالية التي يملكها الأخطبوط.

إن أمريكا -وهي طرف الحوار المنشود- تجاهر قولا وفعلا بالمضيّ قدما نحو إقامة المشروع الإسرائيلي الكبير على أنقاض الوجود الإسلامي، وهي في واقع الأمر صورة مكمّلة للوجه الإسرائيلي، فاللوبي الصهيوني الذي يمثّله (أيباك AIPAC)[24] هو الحاكم الفعلي-تخطيطا وتنفيذا-وأظن أن الوقت قد فات لمسائلته

كي يراجع سياسته، فأهدافه قد تحدّدت- وهو ماض إلى تحقيقها-وأعظم هذه الأهداف: الصّراع ضدّ الإسلام الذي يعدّ العقبة الكبرى أمام الهيمنة العالمية الأمريكية-الصهيونية، وهناك تواصل كامل بين الأهداف الأولى لمؤسّس الصهيونية تيودور هرتزل: "لقد أنشأنا في فلسطين حصنا حديثا للحضارة الغربية ضدّ همجية الشرق" وبين الفكرة الأساسية لـ (صمويل هانتنجتون) – S.Huntington مفكّر وزارة الدفاع الأمريكية ومنظّرها:" الحرب العالمية القادمة ستكون بين الحضارة اليهودية المسيحيّة، والتّحالف الإسلامي الكونفوسيوسي"[25].

" وإن الحضارة الغربية عاجزة عن الوجود من دون أن تبتكر لها أعداء يبّررون وجودها ووحدتها وممارسة جبروتها العسكري، فها هو الخطر الإسلامي يحلّ محل الخطر العربي أيام الحروب الصليبيّة والأندلس والخطر الكنفوشي يحل محلّ الخطر الأصفر، زمن الحرب الباردة على اعتبار أنه بات يتعذّر تصنيف الخطر الشيوعي بما هو خطر حضاري لأنّه جمع شعوبا من حضارات مختلفة"[26]، وهي الفكرة الجوهرية التي دافع عنها في مؤلّفه (صدام الحضارات)، داعيا إلى الموت لا إلى التعايش والحوار.

لقد أصبح واضحا لدى الملاحظين المهتمّين-وحتّى لدى الجماهير-كيف تمكّن رجال الفكر الصهيوني من صناعة القرار الأمريكي وتوجيه سياستها الخارجيّة، وبالأسلوب المباشر الصّريح.

عندما لمّح الرئيس الأمريكي السّابق كلينتون إلى أنه يجب كبح جماح سياسة الاستيطان التي ينتهجها نتنياهو–رئيس الحكومة الاسرائيلي وقتها–وجّه له 83 سيناتورا من بين مائة تحذيرا لكي يتنازل عن كل أنواع الضغط[27].

–نقبل على أنفسنا متسائلين عن حوار منشود مع هذا المارد المدمّر–كيف يكون، وعلى أي أساس يقوم، هل نقيمه على مثلنا الخالدة، وأحكام ديننا الإنسانية العادلة، أم وفق طبيعة الآخر–وهي طبيعة استعلائية، تلغي، ولا تحاور، تقرر ما ترى وما تريد، وتدين وتتّهم من يعقّب.

إنّنا أمة طيبة، أمة الضمير الذي يحكم السّلوك، ويوجهّه، ويكيّف المصالح، ويوائم بينها وبين مقتضيات العدل والحق–والأحكام التي تنظم السلوك تفيض بالفضائل، والأساس الإنساني هو المرجع الفاصل الذي تبني عليه المرجعية الإسلامية في جميع مذاهبها.

–المرجع الغربي –مرجع احتوائي لا حواريّ، وهذه معضلة تنسف كل أحلام الحواريّين في العالم الإسلامي: ولا أظن أن حلها سيولد من مخاض المحاولات الحوارية، بل بمراجعة الذّات، وتحديد الأهداف والارتقاء بالمستوى الوجودي إلى المستوى الحضاري الذي يتجاوز النّقد والتّعقيب إلى الإنجاز والإبداع.

– إنّ الولايات المتحدة–وهي طرف الحوار–اتّجهت إلى الخارج لاحتوائه وامتلاكه، وقطعت كلّ أمل في سماع الآخرين.

لقد أعلن الرئيس (وودروويلسون) في خطاب تنصيبه لفترة رئاسيّة ثانية: لم نعد شعبا يهتم بأموره المحلية فقط [28].

–نعم لقد خرجت أمريكا –رائدة الغرب–ومايسترو الأوركسترا المتوحشة خرجت لا لتكتشف الوجود، بل لتمتلكه، نفطا، وعقارا، وقواعد استراتيجية.

-إن السّخرية الأمريكية تبعث اليأس في قلوب المتوسّمين للتعايش والحوار من أبناء العالم الإسلامي وغيره، وإذا أمكن تصوّر علاقة بين الإسلام والغرب، فبالشّروط الأمريكية، لا بشروطنا.

ويبدو أنه لا مكان، ولا إمكان لمذهبيّات، وحضارات تعايش الحضارة الغربية الأطلنطيّة، والنظرة إلى العالم الإسلامي تكيّفها الأطماع، والتوسّع، هذا يقين، لا يفوقه إلا يقيننا في الله الواحد: " لكن الأخطر أن يبدأ اليوم-من أجل المستقبل-تخطيط عملية تمزيق الكون بين غرب متحالف من المحيط الهادي إلى الأورال، متجاوزا الخصومات الاستعمارية القديمة، وتوازنات الرّعب القديمة بين الشرق والغرب، من أجل استمرار هيمنة الشّمال على الجنوب، إن ما يحدث ليس حربا عالمية، حيث المستعمرات كانت مجرّد مكوّنات إضافية في الآلات الحديدية لصراع الكبار، ولكنّها حرب بين عالمين اثنين: حرب بين نادي الأغنياء، الذي يريد الاحتفاظ بالاحتكار والسّيطرة على ثروات الكون، ضدّ باقي دول العالم التي أصبح ينتظرها مصير من المجاعات على شاكلة هيروشيما"[29].

إن النظام العالمي الحالي في اتجاه واحد: حماية القوة الأمريكية، وفتح أسواق العالم أمامها، ولا شك أن أيّ حوار، أو لقاء يجري ضمن هذه الأطر لا يفضي إلاّ إلى توسيع الهوّة، وتعميق المأساة -مأساة المستضعفين في العالم الإسلامي-خصوصا-والسّير قدما في اتّجاه حوار عديم الفائدة.

كتب الزعيم النقابي البرازيلي (لولا **Lula**) قائلا: "الحرب العالمية الثالثة بدأت بالفعل، إنها حرب صامتة، ولكنها ليست أقل رعبا فبدلا من الجنود الأطفال هم الذين يموتون، وبدلا من ملايين المصابين، هناك ملايين العاطلين، وبدلا من تدمير الجسور، تغلق المصانع والمدارس والمستشفيات... إنّها حرب أعلنتها الولايات المتحدة ضد العالم الثالث"[30].

وإذا كان الحال هو كما وصفت، فإن الحوار المنشود ينقلب–وبإرادة الغرب–إلى تصادم، لغياب مفهوم الحوار أوّلا، ولاتكاء الغرب على كرسيّ التسلّط وهيمنة النّظرة الوصائية على العالم الإسلامي (المتخلّف) لجعله يتماهي في النسق الغربي كلّية، لا ليرتقي ويتطور، بل ليكفّ عن النّمو والحركة، ويظلّ حقلا للنفط أو منجما للذهب، أو قواعد حربية، تحقّق في النهاية الطموح الغربي الكبير في رفع الأرصدة والحسابات والمضاربات الخيالية، واستحداث أساليب فرض الضرائب والقيمة المضافة.

وإذا كان قدر الإسلام أن يدخل في حوار، فليكن حوارا مع الذّات بغية استنطاق المقّدرات الحضارية، والبحث عن الفعل الإيماني الخلاّق، بغية الانطلاق نحو أفق يسمح لنا بأن نقع في مستوى الإبصار الغربي الأمريكي–الذي لا يبصر الضعفاء–ويتيح لنا التعبير عن إرادتنا، وطموحنا في أن يكون لنا مكان تحت الشّمس لا خلفها–كما يريد الغرب الذي فقد الضّمير.

هذه محصّلة بحثي الموجز، حول إمكانية الحوار بين الإسلام الخالد، والغرب الطاّرئ، خلصت إليها بعد عرض قضايا متتالية، طارحا على بساط النظر البنية العقلية للغرب، أوربا، ثم أمريكا–إيمانا منّي أن المخاطب ينام على فلسفة، واستراتيجية. ولم أتوقف بالتحليل عند مضامين الرسالة الإسلامية لأنها أحادية الزّمن ولدت مرّة واحدة: لحظة الوحي، مكتملة –خالدة، ولا يكاد أي طالب للحقيقة يجهل المعالم البارزة لهذه الرسالة، ولعلّ الإشارات السّريعة تغني، والله المستعان.

الهوامش

1–يطلق على التعليم المدرسي الذي نشأ ونما في المدارس الكنسيّة والجامعات الأوربية بين القرن العاشر والقرن السابع عشر للميلاد وأهم الصّفات التي يتميّز بها هذا التّعليم ارتباطه بعلم اللاهوت وتوفيقه بين

الوحي والعقل، واعتماده في البحث على طرف القياس البرهاني، وعلى تفسير النصوص القديمة ولا سيّما نصوص (أرسطو) ويعدّ القدّيس (توما الاكويني) أشهر ممثلي هذا التعليم.

[المعجم الفلسفي صليبا حـ2/ص359-مادة: المدرسي.

طبعة دار الكتاب اللبناني -ومكتبة المدرسة -بيروت 1982].

2-الفلسفة المعاصرة في أوربا -تأليف إ.م.بوشنسكي-ترجمة د.عزّت قرني ص26-عالم المعرفة الكويت-165-ربيع أول 1413هـ-سبتمبر 1992م.

3-تترجم هذه الكلمة أحيانا بالعربية إلى المتعالي-أي ما يعلو على التجربة ومعناها الأساسي عند كانط ما يخصّ الفكر وحده وينصبّ على المبادئ والصّور الأوّلية، ويقابل التجريبي، وذلك باعتبار أن المبادئ العقليّة والصور الأوّلية (أو القبليّة)هي التي تحكم التجربة وتنظّمها.

[المعجم الفلسفي-إصدار مجمع اللغة العربية القاهرة ص43].

4-الفلسفة المعاصرة في أوربا ص.29

5-توضع المؤرخون الغربيون على إطلاق كلمة "النّهضة" على الحركة التجريدية التي سطع ضوؤها على جميع نواحي العقلية في أوربا الغربية، والتي بدأت أدبية وفنّية-فقط-، في إيطاليا منذ القرن الرّابع عشر حيث كانت بقية دول أوربّا ما تزال في العصور الوسيطة والتي لم تتحوّل إلى نهضة فلسفية إلا في أواخر القرن الخامس عشر، ولم تنتشر في فرنسا إلاّ في أوائل القرن السّادس عشر وقد أطلقوا على ذلك العهد"عصر النهضة" "أو" "عصر البحث"، لأنّ العصر الذي سبقه كان عصر جدب ومحل وجمود، ولهذا أخذ أدباء النهضة يدعونه بـ"عهد الليل المظلم" (راجع: المذاهب الفلسفية العظمى، د: محمد غلاب ص 7، دار إحياء الكتب العربية-مصر 1948-1368).

6-الفلسفة المعاصرة ص46، من أجل بيان معنى فلسفة الماهية.

7-الغرب-حسب تعبير جارودي-عرض، وطارئ: حوار الحضارات ص37، منشورات عويرات-ردني علما، ط3/1986، و: كيف نصنع المستقبل: الفصل الثالث ص53، دار الشروق القاهرة ط2/ص.2001

8-نفح الطيب125/4-تحقيق إحسان عباس بيروت 1388هـ-1968م، وازهار الرياض في أخبار عياض للمقرّي 66/1، تحقيق مصطفى السقا والابياري، والتاريخ الأندلسي، د.عبد الرحمان الحجي ص552 وما بعدها، ط5 1418-1997 ، دار القلم دمشق.

9-سورة

10-حوار الحضارات، جارودي ص.41

11-سورة الحجرات.

12-كيف صنعنا القرن العشرين: جارودي ص69، ط2001/2، دار الشروق، القاهرة.

13-كتب مالتوس(1746-1734) أستاذ التاريخ والاقتصاد السياسي في جامعة شركة الهند، مقالا حول مبدأ الإسكان أعلن فيه هذا القانون: "إنّ معدّل السّكان يتزايد في متولية حسابية، بينما يتزايد الإنتاج الأساسي في متولية هندسية: "الفكر السياسي الحديث، د/فايز صالح أبو جابر، ص162، دار الجيل، بيروت-مكتبة المحتسب عمان .1985

14-الإسلام والمسيحيّة: اليكسي جوراقسكي ص 41-42 بتصرف، سلسلة عالم المعرفة، الكويت جمادى الآخرة 1417-نوفمبر .1996

15-حياة الفكر في العالم الجديد: زكي نجيب محمود ص 41، ط2-1402هـ-1982-دار الشروق-بيروت.

16-L'Ame de l'Amérique P.7 Paul K .Padover éditions INTER-NATIONALES-Paris 1960

17) IBID

18-كيف صنعنا القرن العشرين ص 112-.113

19-حياة الفكر في العالم الجديد: زكي نجيب محمود ص.138

20-نفسه .146

21-كيف صنعنا القرن العشرين ص .130

22-اليوريتاني: التطهري: حماعة بروتستانية في انكلترا ونيوانجلند (في القرنيين 16 و17) طالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة.

23-كيف صنعنا القرن العشرين: جارودي ص.135

24-AIPAC. لجنة العلاقات العامة الأمريكية الاسرائيلية.

25-كيف نصنع المستقبل : جارودي ص 37، ترجمة: منى طلبة، تقديم أنور مغيث ط2، 1421-2001.

26-أمر بين أمرين: ثنائيات الإنسان والكون: د/محمد خاقاني، ص37، ط1/1420-1999-دار الهادي-لبنان.

27-كيف صنعنا المستقبل: جارودي ص 142، ويمكن الرجوع إلى كتاب:سيطرة اسرائيل على الولايات المتحدة للمحامي نصّار غلمية، ط1-1981-المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر، والزّحف الأمريكي-صهيوني على العالم الإسلامي شاهد على ذلك.

28-أرض الميعاد والدولة الصّليبية: والترمكد وجال ص 212.

ترجمة رضا هلال ط2-1421-2001: دار الشروق، القاهرة.

29-كيف صنعنا القرن العشرين ص .15

30-نفسه ص128.